الفصل الأول

صحراء الواقع

في وقت متأخر من بعد الظهر في وسط مدينة قندهار، مارس/ آذار 2002م، بعد ستة أشهر من هجمات 11 سبتمبر/ أيلول، كنت أقود سيارتي في الشوارع مع ثلاثة من زملائي من هيومان رايتس ووتش: بيل أركين، وروبن بريجيتي، وبوني دوهرتي، وثلاثتهم باحثون في قسم الأسلحة، الذي يركز على القضايا القانونية والتكنولوجية المتصلة بالأسلحة. كنا نعمل على تقرير عن سقوط ضحايا من المدنيين في أثناء قيادة الولايات المتحدة للعمليات الجوية في أفغانستان في أواخر عام 2001م، وعلى تحليل سلوك كل من القوات العسكرية الأمريكية وحركة طالبان في زمن الحرب، وتقييم العواقب الإنسانية الأوسع للحرب. كنت في قندهار منذ أسبوع، وكان زملائي قد وصلوا توًّا، كنت أبيّن لهم القصف لأهداف رئيسة في الأشهر التي مضت وغيرها من المواقع المختلفة على طول الطريق، لافتًا نظرهم إلى تخطيط المدينة، ونحن نرتطم بالحفر أكثر فأكثر:

هو ذا بريد چوک-ا شاهدان؛ أي الساحة المركزية. وهناك المسجد الأحمر، وهنا مكتب المحافظ، وهناك بعض الشبان قد يكونون من طالبان. شرذمة من الميليشيات الأفغانية تتولى حراسة التقاطعات الرئيسة، في حين جلس شرطي مرور نظامي مرتديًا قفازات بيضاء على كرسي من البلاستيك على الدوار، يشرب الشاي، ملوحًا بين الفينة والأخرى لتوجيه الشاحنات المارة، وبين حين وآخر تمر قافلة صغيرة من الجنود

الأمريكيين في شاحنات تشيفي المظلمة، ورجال مفتولو العضلات ملتحون بثياب القوات شبه العسكرية، وبنظارات شمسية مختلطة للتمويه بلمسات من الأزياء المحلية: بوشاح بني أو بقبعة من الصوف، وحمير تجر عربات من الكزبرة والطماطم إلى السوق ما بين العربات وسيارات الأجرة الصفراء والبيضاء اللون. الشاحنات والحافلات تتوغل خلال كابول أو كويتا تجاه إيران أو تركمانستان، مزينة ومجهزة على نمط جنوب آسيا: برسم اليد وبألوان مشرقة مع جداريات وتصاميم نابضة بالحياة، وآليات التشغيل مزدانة بهامش من السلاسل الصلبة والحلي التي تصلصل مع حركة المركبات، وأبواق سيارات الأجرة التي تقرع كالطبول.

شرعنا نفكر بعد ذلك في الأعمال العدائية بصيغة الفعل الماضي: (الحرب) وقعت في العام السابق. في ذلك الوقت، وبعد شهور من سقوط طالبان، قلة هم من اعتقدوا أن أتباع جماعة طالبان سوف يعيدون تنظيم أنفسهم. وإلى حد ما، قادة طالبان أنفسهم لم يكونوا يعتقدون أن ذلك ممكن. على الرغم من أن التهديد من استمرارية أنشطة المتمردين كان حقيقيًّا، فالعمليات كانت لا تزال تحدث قرب كرديز في جنوب شرق البلاد، لكنها لم تكن تشكل مصدر قلق كبير، فقد كانت أفغانستان تعيش مرحلة ما بعد الصراع، ووقف المجتمع الدولي مستعدًّا لمساعدة البلاد على إعادة البناء. كانت منطقة رمادية مضطربة من السلام والفوضى الجزئية، وكنت قد وصلت إلى قندهار مبكرًا عن زملاء العمل؛ لرصد مواقع القصف، والمباني والبنى التحتية التي تضررت في الحرب واستطلاعها. وفي اليوم الثاني، كنت قد غادرت إلى قرى جنوب المدينة وغربها، حيث كانت الضربات الجوية الموجهة لمجموعات كاملة من المباني قد خلفت حفرًا ضخمة في الأرض، وكان سياق الضربات غامضًا، مع ورود تقارير متضاربة عن وجود قوات طالبان.

قابلت مدنيين في قرى مثل بانجواي وحاجي شير قالات – التي أصبحت في وقت لاحق ثكنة متمردة سيئة السمعة – ودونت الإحداثيات الجغرافية لنقاط الاتصال كما

حدّدها هاتفي الذي يعمل بالأقمار الصناعية، وقفت في الشمس الحارقة على الطرق الترابية أستمع إلى أفراد أسرة يروون أسماء أقاربهم الموتى وأعمارهم «كريم 48 عامًا، وسمين جول 44 عامًا، وفاطمة 12 عامًا، وسامي 4 أعوام ويحصون الثروة الحيوانية التي فقدت «بقرة واحدة وست دجاجات، وجارتنا فقدت أربعة خراف». تجولت في البساتين والمزارع والكروم، حيث دُمّرت أكواخ تستخدم في تجفيف العنب إلى زبيب بواسطة قذائف الطائرات الحربية. رأيت قنبلة عنقودية غير منفجرة بين أشجار الفاكهة. مظلات مثل المناديل الصغيرة حملت القنابل المتفجرة، ولكنها علقت في هذه الأرضية الزراعية في الفروع الكثيفة لأشجار الرمان، وقد تُركت تتأرجح في الهواء، وهي جاهزة للانفجار ما إن تسقط على الأرض. زرت مجمعًا شرق قندهار، حيث الأمم المتحدة وكثير من المنظمات الإنسانية التي خزنت السيارات والشاحنات والمواد الغذائية كما كانت الصورة عليه في الأيام التي أعقبت 11 سبتمبر/ أيلول، قبل إخلائهم إلى باكستان أو توجههم إلى القرى الآمنة خارج المناطق السكانية الرئيسة.

كانت القوات الأمريكية قد قصفت مجمع الأمم المتحدة في غارة جوية في أوائل أكتوبر/ تشرين أول 2001م، وكل ما بقي كان ركامًا من المنازل وصفوفًا من الشاحنات المدمرة، الممزقة والقطع الملتوية من المعدن والمطاط المنصهر، والبلاستيك، فأسطول من السيارات المقدمة من أجل الإغاثة الإنسانية تحولت إلى خردة، ويقدّر مجموع الخسائر بملايين الدولارات. «اتضح أن الضربات لها كانت مقصودة، فقد صرح مسؤولون في البنتاغون لزملائي في وقت لاحق أنهم قرروا أن قوات طالبان خططت للاستيلاء على المركبات واستخدامها لأغراض عسكرية» وقد أعربت الأمم المتحدة عن انزعاجها لأسباب مفهومة، حيث ستمضي أسابيع قبل أن تتمكن من الحصول على الشاحنات الجديدة، التي كانت تعاني شحًّا في أعقاب الحرب. في الواقع، كان لديّ مشكلتي الخاصة في الحصول على وسيلة نقل، فقد وجدت نفسي أتنقل مع زملائي في لاند كروزر معدّل من الدرجة الثانية اقترضته من مجموعة إنسانية محلية، وهي سيارة

بالية بيضاء بمقاعد مهترئة تعبق برائحة وقود الديزل. وكانت مفاوضات سابقة مع تاجر شرس في سوق قندهار قد أخفقت بعد أن فشلت في تحقيق حتى نوع مبهم من الاتفاق، عندما انتهينا فقط إلى مناقشة عدد الأصفار في السعر النهائي للمركبة.

اصطحبت زملائي أولًا لمعرفة المقر السابق لوزارة طالبان لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ أي شرطة الأخلاق التي اعتدنا على تسميتها (الرذيلة والفضيلة) أيام طالبان. وكانت في وسط المدينة، المكان الجيد لبدء بحوثنا منه. وصلنا إلى الموقع، تاركين سيارتنا في الشارع، وقفنا على جانب الطريق محدقين في الموقع تحت شمس الظهيرة اللاهبة. تريثنا لحظة واحدة، واضعين النظارات الشمسية على عيوننا، معدلين سراويلنا لنبدو أمريكيين. بعض الشباب، ولربما كانوا من مقاتلي طالبان السابقين، رمونا بنظرات خليط من الكراهية والقلق، والبراقع الزرق تجول من حولنا مثل الأشباح، فعقدت حاجبي، وأنا أحس بقليل من الذعر، متسائلًا بيني وبين نفسي إن كان هذا آمنًا؟ كانت هذه قندهار، وليست كابول، والأطفال الذين رصدونا سرعان ما تفرقوا راكضين، وبدأت بعبور الشارع يتبعني الزملاء.

احتشد الأفغان الفضوليون من حولنا، صارخين: مرحبًا! أهلًا! وأيادي الصغار تمتد لمصافحتي، وتكاد تعصر أصابعي، وتسحب حقيبتي. سألني طفل صغير بلغة إنجليزية تشبه لغة الروبوت، مرارًا وتكرارًا: كيف حالك؟ كيف حالك؟ ردت فتاة نيابة عني: أنا بخير وأنت؟ وهتف الأولاد الآخرون: مرحبًا! كيف حالك؟ تحدّثت بلهجة (الداري) المكسّرة للفتاة الصغيرة قائلًا لها: أنتِ تتحدثين الإنجليزية بشكل جيد. اتسعت عينا الفتاة الكبيرتان المستديرتان السوداوان المكحلتان، ابتسمت وضحكت. ضحكت كثيرًا، كانت حقيبتي مملوءة بالحلويات، بما يكفي للجميع، فاختفت حفنات من الحلوى خلال ثوانٍ معدودة. أهلًا! أهلًا! بقي الأطفال يرددون، ثم رأيت في ظل المبنى المجاور بعض كبار السن من الرجال جالسين، وبأيديهم مسابح من الخرز يسبّحون بها. سوف يعرفون

كل شيء، قلت لنفسي: عندما أعود إليهم في وقت لاحق. حررت نفسي من جموع الأطفال، وصعدت على الرصيف، ووقفنا أمام وجهتنا المقبلة.

(الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) أو ما تبقى منها، كانت وزارة أنقاض، أو وعاءً مقعرًا من التراب، هو كل ما تبقى بعد الضربات الجوية منذ أكتوبر/ تشرين أول عام 2001م. التقطت صورة مثلما يفعل السائح. «من هنا» قلت لزملائي، صاعدًا الأرض المحطمة، وبدأت بتسلق جانب من إحدى الفوهات البركانية، حيث كانت الوزارة. يتبعني زملائي، والأطفال أيضًا. ونحن نتسلق حتى عشر أقدام، ثم العشرين قدمًا، إلى أن تسلقنا أكثر من ثلاثين قدمًا إلى حافة الحفرة. وقفنا لنحدق في الحفرة، فبدا الأطفال ينظرون لنا تارة، وينظرون إلى أسفل داخل الحفرة، وكأنهم يتساءلون: ما الذي تبحثون عنه؟ «لم يبقَ الكثير لننظر إليه» قلتُ. ثم أخذت صورة أخرى، فنحن في حاجة للصور، صور لتمثيل هذا المشهد.

كان هذا هو الدمار الذي خلفته الحرب، ولكن كان من الصعب تصويره ليكون تذكارًا، حيث لم يتبقَّ شيء ليكون تذكارًا أصلًا، فلا جدران بقيت بلا سقوف، ولا أنصاف أقواس بقيت، ولا حتى قضبانًا ملتوية. إنه فقط مجرد ركام، وقد تلاشى هيكل المبنى تمامًا، فالانفجار كان قد دمر شكل المبنى وأجزاءه: الجدران، وإطارات الأبواب، والحزم، والأثاث. حتى الطوب غدا نتفًا وقطعًا متناثرة، فلم نكن نقف على أطلال، بل على اندثار. بدأ زملائي ينتشرون حول الموقع، الجميع منهمك في العمل الذي يخصه، فقد شرعوا يأخذون إحداثيات المكان على هواتفهم التي تعمل بالأقمار الاصطناعية، بوصفها جزءًا من محاولة رسم خريطة للضربات التي شُنَّت خلال الحرب، جنبًا إلى جنب مع المعلومات المتاحة عن عدد القتلى والجرحى.

وكنت قد بدأت العمل في هيومن رايتس ووتش في أكتوبر/ تشرين أول 2001م، وذلك قبل ستة أشهر، وكنت لم أصبح باحثًا بعد، وكنت أعمل مستشارًا، ميسرًا للخدمات

اللوجستية، وفي الحصول على السيارات والمترجمين الفوريين، والخرائط، وترتيب رحلات الطائرات الصغيرة للأمم المتحدة، وإجراء بعض المقابلات. وعندما بدأ عمل الفريق في الموقع، وقفت مرة أخرى مع الأطفال في حالة ذهول قلقًا وطافيًا على حواف عالية لحفرة تحت الأنقاض. أشعلت سيجارة، وشربت بعض الماء، وعبثت بهاتفي الذي يعمل بالأقمار الاصطناعية. كنت قلقًا بشأن الأمن، فعناصر طالبان يتجولون باحثين عن هدف، وقد رأيت شابًّا مندفعًا بعيدًا عنا عندما وصلنا، وقد حدجنا بنظرة غاضبة، فإن واحدة من زملاء العمل لم تكن ترتدي أي غطاء على رأسها، وهذا ما شكل لي إزعاجًا، فقد كانت بمنزلة الخطر الذي لا داعي له، وهي ميزة أخرى للفت الانتباه إلينا.

كان القلق شيئًا شخصيًّا ومبالغًا فيه، فربما كانت حركة طالبان أيضًا خائفة مثلنا، فقد كانت البلاد غير مستقرة: بعد أسبوع فقط، وفي بلدة صغيرة في أقصى الشمال من قندهار، كان عليّ أنا وروبن بريجيتي أن نركض مثل الغزلان بعد إصابتنا بالذعر بسبب اندلاع مفاجئ ومتقطع لنيران الأسلحة الآلية وانفجار، غصنا داخل شاحنتنا، وانطلقنا، ومرت رحلة العودة الطويلة إلى قندهار التي استغرقت ساعات من القلق والخوف. (وحتى يومنا هذا ليست لديّ فكرة عما تسبب في تلك الحادثة) بعد سنوات، كان من المستحيل بالنسبة إلى الأجانب المغامرة في قندهار، مثلما كنا في ذلك الشهر. ومع ذلك، في هذه المرحلة كانت البلاد هادئة إلى حد كبير، لكنني لم أكن أعرف في ذلك الحين، فإنما كنت أخشى الأسوأ.

أرى ذلك عبر الشارع، دمارًا آخر، فوهة أصغر تدل على مبنى تجاري مدمر، وعدد من المنازل المجاورة المنهارة. كان السكان قد بدؤوا بتنظيف الحطام وإزالة الطوب. الرجل العجوز هناك، كان لا يزال يحملق في وجهي. انتهيت من سيجارتي، وهرولت إلى أسفل بجانب حافة الأنقاض شاقًّا طريقي عبر الشارع مع أحد المترجمين من فريقنا. اقتربنا من الرجال كبار السن، وقدمنا أنفسنا. كنا من (مجموعة حقوق الإنسان) التي أرسلت لتفقد الأضرار خلال الحرب الجوية. «كان من المستحيل تقريبًا ترجمة هيومان

رايتس ووتش إلى لغة الباشتو أو الداري – فكلمة – ووتش (حراسة أو مراقبة) تبدو لا معنى لها، والمترجمون الأقل خبرة في بعض الأحيان يترجمونها خطأ باسم (ساعة)» قلنا لهم: إننا نريد أن نعرف ما حدث، وإذا ما كان هناك مدنيون قد لقوا حتفهم في الحرب.

فوجئ الرجال المسنون، فقد كانوا يعتقدون أننا من موظفي حكومة الولايات المتحدة، وربما جواسيس، فأصبحوا أكثر حيوية وحركة، وقالوا لنا: إن عددًا من المدنيين لقوا حتفهم في الموقع عبر الشارع، وتحدث أحدهم بلغة الباشتو، مشيرًا صراحة، وبشرح واضح ومعبر: سقطت القنابل (هنا) و(هنا)، وفُجّرت المباني إلى نتف. «لم يكن أحد في المحل الذي أصيب» قيل لنا، ولكن الأب وبعض أطفاله في البناء المقابل دفنوا تحت الأنقاض، واختنقوا أو سُحقوا حتى الموت، وأضاف أن اثنين من الرجال كانا في المكان ليلة الضربات الجوية، وأوضح أن مباني طالبان كانت فارغة عندما أصيبت، وأن مقاتلي طالبان أخلوا المكاتب، وفي الوقت الذي بدأت فيه القنابل تسقط لم يكونوا حتى في المدينة، وعبرت الشارع مرة أخرى للانضمام إلى زملائي لنقول ما سمعناه للمحقق الرئيس، بيل أركين. كان أركين وزميل آخر يتفحصان شظايا القنابل التي رفعوها من أسفل الحفرة الرئيسة، ومن الأنقاض التي عثروا عليها قطعة مربعة من المعدن، وإطار لنوع من الأجهزة الميكانيكية تضرر بشدة، وكان أركين يتفحصها، ويقلبها من كل جانب في يديه، وكان زملائي الآخرون مستغرقين في التقاط الصور. ترددت؛ ذلك أنني لم أرد مقاطعتهم.

كان أركين أكبر من أن يكون قائدًا لفريقنا، فهو ضابط سابق في استخبارات الجيش، كان قد عُيّن مستشارًا لرئاسة بعثة هيومان رايتس ووتش في أفغانستان بسبب خبرته في تحديد الذخائر وتحديد كيفية استخدامها، وقد أجرى تحقيقًا مماثلًا في صربيا وكوسوفو قبل عامين. كان أجش الصوت، وساخرًا، وعاصفًا أحيانًا، بدافع على ما يبدو من الاشمئزاز الشديد من عدم الكفاءة العسكرية. وكان ذكيًّا للغاية ومتشككًا من

المؤسسات العسكرية، وكان يعرف الكثير عن الذخائر. وكان يبحث عن الأدلة المادية، ويسجل المعلومات، وتوصل إلى استنتاجات صلبة أو فرضيات جيدة على الأرض. كانت تلك المهارة ضرورية للمهمة التي نحن بصددها. لم نكن لنحقق أي شيء من خلال انتقاد الجيش الأمريكي لسقوط ضحايا من المدنيين لو لم نستطع أن نشير إلى أسباب الأخطاء التي ارتكبت، وتقديم توصيات معقولة بشأن كيفية تفاديها في المستقبل.

عبر الشارع بعض الصبية الأفغان جرّوا قطعة أخرى كبيرة ملتوية من غلاف قذيفة مع الأرقام التي رسمت على جانبها، فتحدثت مع أركين عن كل ما قاله لنا الرجال المسنون. أركين ألقى نظرة طويلة على المعادن، وأوضح أن الدمار في الموقع كان نتيجة لقذيفتين من ذخائر الهجوم المباشر المشترك الذي يستخدمه الجيش الأمريكي، فمن المحتمل أن تكون أسقطتها القوات الجوية الأمريكية أو الطائرات البحرية. قال أركين: إن مثل هذه القنابل لها زعانف في الذيل مع دفات مسيطر عليها من آليات إلكترونية مرتبطة بنظم توجيه فضائية، إذ وجهت القنابل إلى نقطة الاصطدام: سطح مبنى الوزارة. «كانت قطعة من المعدن الملتوي التي وجدناها جزءًا من جهاز التوجيه» الطائرة الحربية أطلقت القنبلة في المنطقة العامة للضربة، حيث سيطرت الزعانف الإلكترونية على مسار القنبلة، ووجهتها إلى الهدف المحدد. كان عتاد الهجوم المباشر المشترك في العادة دقيقًا، ولكن ليس دائمًا، ومن ثم جرى تدمير الجانب الآخر من الشارع، ومما لا شك فيه، فإن الهدف نفسه كان جيدًا بحسب دقة مصدر المعلومات الاستخباراتية الذي أعطى الإحداثيات. إن القنبلة يمكن أن تسقط بدقة على الهدف، ولكن هذا لا يعني أن الهدف قد حُدّد بصورة صحيحة في المقام الأول.

في وقت لاحق، فكرت وأنا أقف على حافة الحفرة الرئيسة، كيف يكون الأمر، وأنت ترى قنبلة تهبط عليك، وتنفجر؟ كان الظلام يلف المكان، بحسب تقديري، وكانت معظم التفجيرات تقع في الليل، وسقطت الكتل المعدنية من السماء على رؤوسها، بزعانفها الخلفية مثل ريش السهم، مبقية رؤوسها المدببة مصوبة نحو الأرض. ومن المحتمل

أنها خلال هبوطها إلى أسفل أصدرت أزيزًا صافرًا، بسرعة مئات عدة من الأميال في الساعة، ثم اخترقت سقف المبنى. من المحتمل أنها اخترقت السقف قبل أن تنفجر، فاشتعل الصاعق الموجود في رأس القنبلة عند الارتطام بالسقف، ونشط المحول بفعل قوة الاحتكاك الأول بالمبنى، فأحدثت الشرارة الكهربائية شحنة ناسفة صغيرة داخل الصاعق، القنبلة داخل القنبلة، فأشعلت الشحنة الصغيرة المتفجرات الرئيسة داخل القنبلة. استغرق كل هذا بضعة أعشار من الثانية، بينما استمرت القنابل في اختراق المبنى. أوضح زملائي هذا لي. ويمكن ضبط التفجير وتأخيره مئات الأجزاء من الثانية، من أجل تحديد مدى العمق الذي ينبغي اختراقه قبل أن تنفجر: على السطح أو في الطابق السفلي. قيل لي خلال التدريب: «إنها مثل المصعد». ويمكن أن يقرروا ما إذا كانوا يريدون القنبلة أن تنفجر في الطابق السابع أو في الطابق الثالث.

فإذا كانوا يريدون إسقاط المبنى وقتل أكبر عدد ممكن من الناس، فإنهم قد يضبطون المفجر لوقفه عُشْرين من الثانية وتفجير الطابقين السفليين، أو إذا كانوا يريدون تجنب سقوط ضحايا من (خارج المبنى) وقفه مدة أطول، مثلًا، ستة أعشار من الثانية، ويكون ذلك التفجير في الطابق السفلي، الذي يؤدي إلى انهيار البناء على نفسه، ولكن التطور التكنولوجي له حدود، فمهما عُدّل الصاعق، سوف توضع كمية كبيرة من المتفجرات مع كل ما يصاحبها من النتائج، فالكتلة المتحركة والطاقة تلتقيان مع كتلة ثانية مستقرة، وتحركها أو تزيلها، وهو مشهد مألوف لكل من يشاهد التلفاز أو الأفلام، لكن تجريبه أقل شيوعًا من الحدث الحقيقي. المتفجرات دمرت المبنى، ودفعت كتلته المادية إلى الخارج وإلى أعلى في الهواء، لتقوم الجاذبية مرة أخرى باستردادها، فتستقر على شكل أكوام من الأنقاض. فأي شخص سيئ الطالع تصادف وجوده في المبني أو بالقرب منه، عندما وقع الانفجار كان سيلقى حتفه المحتوم، أو إذا لم يمت، يصاب بجروح خطيرة.

في وقت لاحق من اليوم نفسه، ذهبنا إلى بعض الأهداف الأخرى في المدينة وحولها، بما في ذلك مجمع زعيم طالبان، الملا عمر، شمال قندهار، وعلى الرغم من طمس معظم الموقع، ظل هناك نحت غريب لمنظر غابة سليم في ساحته، مثل مسرح من معجون ورقي أُعِد لعرض **عمل عبثي** ملفوف داخل الحقيقة والواقع. سرنا حول المجمع، والتقطنا صورًا للمباني المنهارة – الهياكل المادية التي كانت تمثل مركز السلطة السيادية في طالبان أفغانستان. بوني وروبن استكشفا بعض المباني الرئيسة في المركز.

عندما حاولنا قيادة سيارتنا لبعض المباني المتبقية على مقربة من المكان، أوقفنا الحراس الأفغان، وعلى مسافة بضع مئات من الأقدام أمامنا شاهدنا بعض الأمريكيين، رجالًا يرتدون ملابس مدنية بأسلحتهم المدلاة على جوانبهم، ويحيطون بسيارة، ويتحدثون مع بعضهم. يبدو أن القوات الأمريكية قد أحكمت السيطرة على ما تبقى من منازل الملا عمر لتُستخدَم بوصفها قواعد عمليات لهم. «مزارع تارناك، بؤرة تنظيم القاعدة بالقرب من مطار قندهار – الموقع الذي كان بن لادن قد زاره عام 2000م، عندما رصدته طائرة استطلاع وكالة المخابرات المركزية كانت كلها قد جرى دمغها من قِبل قوات الولايات المتحدة» التقطنا المزيد من الصور، مثل السياح، ثم تحدث الأمريكيون لبعض الحراس الأفغان الذين بدؤوا في الاتجاه ركضًا نحونا، وهم يهتفون: «ممنوع التصوير!» فقال أركين: وكالة المخابرات المركزية، وابتسم، محركًا عينيه قليلًا، ثم متجهًا وهو يتحدث معهم. بطريقة أو بأخرى أقنع الحراس الأفغان بالسماح له بالمضي قدمًا، لكنه سرعان ما عاد، فالأمريكيون لم يكونوا في حالة مزاج تسمح بالتحدث معهم.

اتجهنا إلى أماكن أخرى حول المدينة، باحثين عن مواقع الانفجارات، التي ضربت المساكن، عن قصد أو عن غير قصد. كان لدى أركين مجموعة من البيانات عن المواقع المستهدفة مستمدة من نظام GPS لتحديد المواقع. نزلنا في اتجاه أحد المجمعات،

ثم صعدنا إلى آخر - «اتجهوا يسارًا»، كان أركين يقول لنا «حافظوا على السير بخط مستقيم. حول الزاوية»، ثم فجأة، وإذا بنا أمام مجموعة من المباني بالأرض تمامًا، أكوام من الحديد الملتوي والخرسانة. أخبرنا الجيران ومن خلال المترجم «عاش العرب هنا». ثم تحولوا للحديث معي، مستخدمين كلمات لا يمكن أن أفهمها: «تنظيم القاعدة»؟ «هل كانوا في المنزل؟» سألتهم. «هل قُتلوا؟» «لا، لا، لا» في الباشتو، كلمات بسيطة كافية لتمكنني أن أفهم. المترجم كان مصغيًا، ثم أوضح: «الرجال غادروا، وبقيت بعض زوجاتهم وأولادهم هنا، بعضهم توفي، وبعضهم نجا، وغادروا إلى الباكستان». سمعنا عن وقوع إصابات في المباني المجاورة كذلك: عتاد الهجوم المباشر المشترك هو الذي قتل المدنيين، وبكى الرجال وهم يخبروننا عن الأطفال، عن أبناء العمومة والأخوال وبناتهم و الأقارب الذين قضوا. وقفت النساء عند مداخل بيوتهن، وهن يمسكن الشادور أمام وجوههن، ويصرخن علينا بلغة الباشتو، يطلبن منا إجابة عن سبب قتل أحبائهن: «لماذا؟، لماذا؟، لماذا؟»، قالوا: إن أمريكا تخوض معركة مع العرب، لكن الذين قُتلوا هم الأفغان عوضًا عن ذلك: طلبنا أسماء، وأحصيت الأرقام. كان أسبوعًا حزينًا، وبعد بضعة أيام سافرنا إلى قاعدة عسكرية أفغانية قديمة في ضواحي المدينة، التي أظهرت بيانات أركين أنها تعرضت للهجمات مرارًا وتكرارًا في أكتوبر/ تشرين أول عام 2001م، وقد قيل لنا: إن القاعدة سُوّيت بالأرض، وهذا ما حصل فعلًا.

قال لنا الحراس: إن قيادة السيارة داخل القاعدة تشكل خطورة، ولذلك يجب علينا تركها خارج البوابة؛ لأن القاعدة مليئة بالذخائر المتناثرة هنا وهناك، فغادرناها، وتركناها عند البوابة. كان المشهد مروعًا، فالخراب لا يوصف تقريبًا.. فـ «هذا هو ما تعنيه الأرض المحروقة» كتبت في دفتر ملاحظاتي. كل قطعة من المواد مُزّقت في كل اتجاه. لم يكن القصف هو القصة كلها، فقد أصابت الغارات الجوية مستودع ذخائر طالبان، ما أدى إلى اشتعالات كارثية، فحول حفرة ضخمة في الأرض يمكنك أن تجد أن كل شيء بات محروقًا، لدرجة أن الأشجار على بعد مئات الأمتار نالها الدمار، وتمزقت.

وكل ما حولنا ذخائر غير منفجرة وقنابل ورصاص، وأغطية فوهات صواعق، وحتى قذائف مدفعية، وقطع ميكانيكية لتكنولوجيا العنف المنتشرة في كل اتجاه مثل الصخور والحصى. قذائف هاون متناثرة بالعشرات في جميع الأنحاء، والصناديق المكسورة نثرت ذخائر المدفعية السوداء، وعليها كتابة صفراء. قنابل يدوية سوفييتية قديمة ملقاة بين الأحزمة الملتوية لقذائف مدفع رشاش. كانت القاعدة أشبه بفخ للموت، والسماء من فوقنا – باردة ورمادية ومملة – عززت الكآبة في النفوس. كان مشهدًا مروعًا، فحتى أركين الذي كان ثابت الجنان أصيب بالصدمة بعض الشيء، وقال: «هذه فوضى حقيقية»، وتحدثنا مع أفراد الميليشيات الأفغانية، الذين وصفوا لنا الاستيلاء على القاعدة في نوفمبر/ تشرين الثاني بعد أن أخلتها حركة طالبان متوجهة إلى الباكستان، فربما لم يكن أي مقاتل من طالبان حاضرًا ليلة الهجوم، إلا أن الانفجارات كانت مذهلة.

ظل المستودع يحترق مدة يوم كامل، مع انفجارات بين الحين والآخر، ولم يقترب منه أحد مدة أسبوع. فكرت كيف يمكن لمثل هذا الانفجار أن يبدو وكأنه كرة من اللهب، ثم الانفجارات الثانوية المتتالية، وهي تشق جنح الليل، وكيف للطاقة الكامنة في الذخائر أن تغدو حقيقية. ربما كان المشهد مرئيًّا من الفضاء. وهكذا هو مشهد إسقاط طالبان كما كان. فكرت في مستودعات الأسلحة، وهي تنفجر، تاركة جثث بعض النساء العربيات الميتة وراءها. لقد ركلت الولايات المتحدة عش النمل، ناثرة النمل في الأرجاء، مثلما نثرت هذه المواد المتفجرة، وقد جلب المشهد إلى الذهن كثيرًا مما قاله الناس عن هجمات 11 سبتمبر/ أيلول، بأنها كانت (سينمائية). وهذا وصف غريب، إذ كان عامل إغاثة بريطاني أعرفه قد وجد التوصيف مسليًا. «أنتم الأمريكان» كما قال لي بحزن في بيشاور في أكتوبر/ تشرين أول 2001م، كما لو كان يتحدث عن أحمق القرية،«كل ما رأيتموه انفجارات في الأفلام فقط، ثم عندما شاهدتموها حقيقية قلتم: إنها تبدو سينمائية، إيه؟ حسنًا»، وخفض صوته ليبدو وكأنه لورانس فيشبورن يتحدث مع جان بودريار على شاشة التلفزة: «**مرحبًا بكم في صحراء الواقع**».

هذا ما كان، فإنها صدمة الحقيقة معززة بصور، كانت مألوفة بالنسبة إلى الأمريكيين إلى حد ما: الواقع يحاكي الآن روتين عالمهم المصطنع، وحلقات البرامج التلفازية والأفلام. ولكن هل كان الأمريكيون يشعرون بالأسى لأن أوهام عالمهم السينمائي المليء بالعنف، قد تسللت إلى الواقع؟ أم كانوا منزعجين دون وعي على مستوى أعمق لأن الصور عن الهجمات، المألوفة جدًّا، قد كشفت لهم شيئًا شريرًا عن أنفسهم: إنهم «حلموا» بـ 11 سبتمبر/ أيلول، إذا جاز التعبير، قبل ذلك اليوم فعلًا؟ «اقترحت الفكرة في وقت لاحق من قبل الفيلسوف السلوفيني سلافوي زايزك، الذي ألف كتابًا بعد 11 سبتمبر/ أيلول، سمّاه (**صحراء الحقيقة**)». وإذا كان صحيحًا أننا قد حلمنا بالهجمات، فماذا يعني هذا؟

كنت في نيويورك في 11 سبتمبر/ أيلول 2001م، بعد أن عدت توًّا من أفغانستان. كنت أحلق ذقني عندما اصطدمت الطائرة الأولى بالبرج الشمالي، وكنت أستحم عندما ضربت الطائرة الثانية البرج الجنوبي، وسمعت انفجارات على حد سواء من خلال كوّة في الحمام في شقتي في بروكلين، عبر نهر إيست، وأقل من ميل واحد بعيدًا عن الموقع. اعتقدت أنها كانت أصوات نوع من صخور البناء جرى تفجيرها أو شيئًا من هذا القبيل. غير اعتيادية، نعم، لكنني واصلت ارتداء ملابسي، غير مدرك لما يجري، ثم بدأت أتلقى المكالمات الهاتفية من الأصدقاء والأقارب. في غضون دقائق كنت قد تسلقت سطح المنزل، وأتذكر لحظة خروجي من كوة السلم، محملقًا في المباني، وكررهًا أهتف: «وو، وو، وو»، ورأيت الأبراج وهي تشتعل، وقطعًا من الورق تتطاير منها إلى الهواء وعبر النهر، وتتناثر فوقي الآن.

كانت الأبراج لا تزال قائمة، ونحو الساعة 09:10، نزلت إلى الطابق السفلي، وتوجهت إلى الخارج، في اتجاه جسر بروكلين، وأردت عبور النهر لرؤية ما كان يحدث، وتوثيقه في تكنولوجيا المعلومات، وهذا ما فعله العاملون في مجال حقوق الإنسان. «هذا هو التاريخ» قلت لنفسي. انتقلت بسرعة عبر الشوارع وإلى أسفل في اتجاه جسر بروكلين.

كان الناس يركضون في كل اتجاه، وكثير منهم في صمت تام، وانطلقت صفارات الإنذار، أُغلق الجسر، والتفتّ إلى الوراء، حيث مبنى المحكمة الاتحادية القريب، الذي كان والدي يعمل فيه قاضيًا، وقد أُخلِي؛ لذلك قطعت الشارع لأعرف من الحراس ما إذا كان والدي هناك. قالوا لي: إن والدي في واشنطن في مؤتمر قضائي، وقد أُخلِي أيضًا، وكان على متن حافلة مع قضاة آخرين، متوجهين إلى نيويورك، وفي طريقي نحو العودة إلى المنزل، قالوا: إن جسر مانهاتن قد يكون مفتوحًا، ولكنني كنت أرتدي بذلة، وكنت في حاجة إلى تغيير ملابسي بأخرى يمكنها تحمل الأوساخ، وكنت في حاجة إلى كاميرتي، فحتى اليوم يمكنني تذكر شعوري بالارتباك، فلقد كنت فقط في كابول والآن أنا هنا، وخطر لي أن أخي توبي، وهو طالب في كلية الطب في ذلك الوقت، قال قبل بضعة أيام: إنه يريد أن يصطحب صديقًا إلى سطح المراقبة فوق مركز التجارة العالمي، وتجهمت وأنا أستعيد المشهد، **فأول طائرة ضربت في وقت مبكر جدًّا، فلا يمكن أن يكون قد ذهب في وقت مبكر جدًّا، ولكن**... ثم بقيت أمشي، مراقبًا ومشاهدًا أصواتًا أخرى من ذلك اليوم، وبينما كنت أواصل السير، وأنا أُقلّب هذه الفكرة في ذهني، انهار البرج الأول.

سرعان ما انهار البرج الثاني كذلك، فتوقفت عن التفكير في أخي في ذلك الحين، أو أنني قمعت أفكاري. على أي حال، لم أفكر في مصيره مرة أخرى إلا بعد ساعات قليلة، عندما اكتشفت أنه على ما يرام، وأنه أرجأ الزيارة. مرة أخرى عدت إلى شقتي قبل ظهر ذلك اليوم، وحاولت التفكير بشكل عملي، وخلعت البذلة وربطة العنق، وانتزعت الكاميرا ولفّات أفلام. أكلت بعض الخبز، وملأت زجاجة بالماء، وقطعت مزيدًا من الخبز، ومسحته بالزبد، ووضعته في كيس، ثم خرجت.

أوقفتني الشرطة مرة أخرى عند جسر بروكلين، فتحولت تجاه جسر مانهاتن الأبعد إلى الشمال الشرقي، فقد كنت أنهب الطريق نهبًا مخترقًا السيارات المتوقفة وسكان نيويورك المصدومين، الذين كانوا يمشون في ذهول. على الطريق أتذكر أني

مررت برجل يجلس على دكة أمام المنزل، ورأسه بين يديه، ينتحب: «كل هؤلاء الناس موتى!» وفي شارع تيلاري، وقف رجل من الطائفة الحسيدية اليهودية في باب حافلة صغيرة، مثل عامل بناء شجاع وقوي البنية. «هذه هي غلطتكم اللعينة» صرخ الرجل، الذي كان أصدقاؤه يحاولون تهدئته، في وجه اليهودي. «جماعتكم، خطؤكم الحقير». كرر هذا السطر الأخير أكثر وأكثر، في حين عقد الحسيدي يديه، محاولًا أن يقول شيئًا، بينما اقترب ضابط شرطة. كان الناس يحدقون، متجمدين، فواصلت السير، وعبرت الجسر بعكس طابور طويل من السيارات، والناس يتحركون بتصميم بعيدًا عن مانهاتن، واستغرق الأمر وقتًا طويلًا للعبور.

على جانب مانهاتن، كانت كل الفوضى، فالأرض مغطاة ببوصات عدة من الغبار والورق، وكان الهواء رماديًّا. وقفت الشرطة كالأحجار بالقرب من قاعة المدينة، لمنع أي شخص من التحرك في اتجاه مركز التجارة العالمي، وانضممت مع مصور صحفي أوروبي التقيته عندما كان كل واحد منا يحاول التحرك جنوبًا نحو حواجز الشرطة، اتجهنا نحو الشرق، وبعد ذلك إلى الحي المالي الفارغ عبر منطقة جنوب شارع الميناء، خطواتي كانت كما لو أنها لشاب دون العشرين من عمره، عندما كنت أعمل بوظيفة مساعد قبطان على متن القوارب واليخوت السياحية. كانت الشوارع فارغة تمامًا، فلم نَرَ أي كائن من حولنا. انتهى بنا المطاف قريبًا من موقع مركز التجارة العالمي من شارع فولتون والشوارع الجانبية له، ها هم يتجمعون فوق الحطام، ويتنقلون خلال الرماد، في بعض النقاط كانت سيقاننا تنغمر بركام الورق والرماد حتى بطأت أرجلنا أو حتى الركب، التقطنا الصور، وغيّرنا لفّات أفلام الكاميرا، ومررنا بالمطاعم حيث الأطباق لا تزال ماثلة على الطاولات مع نصف الطعام الذي قد تم تناوله، وقد غدت مغلفة الآن برقائق بيضاء من الغبار، وقصاصات من الورق تتطاير مع الغبار، وتطفو في الهواء، وتدور، وتتراقص في الأنحاء.

كان كما لو كنا، نعم، في حلم، قلنا لا شيء تقريبًا، وكانت لي تأملات مجزأة: أفكار حول ما فعله الإرهابيون حالًا، عن الجرأة الهائلة في الهجوم و- حماقة النظرة الإستراتيجية له - العدمية منه. بعد أشهر، نشرت صحيفة نيويورك للشاعر فريدريك سيدل قصيدة (ديسمبر)، التي عبّرت بشكل أدبي عن عقلية إرهابية كما فهمتها أنا بعد ظهر 11 سبتمبر/ أيلول. القصيدة، التي يُفترض أن تكون بصوت أسامة بن لادن، توصل هوس الإرهابي مع العالم الغربي الفاسد، غالبًا في صورة رغبة. مطلعها: «أنا لا أومن بأي شيء/ أنا أومن بك». الأغنية تحدثت مباشرة إلى ذكرياتي في ذلك اليوم، وأنا أسير في وسط المدينة من خلال الرماد. وكان الهدف من القصيدة الصدمة، مثل الإرهاب نفسه:

أحبُّ لون الرائحة، أحبُّ رائحة اللحوم الفاسدة.

أحب كيف تحوّل الغرغرينا اللحم الصلب الدافئ إلى

صقيع فاسد.

عندما تَسْوَدُّ الزرقة، و يبترونها، أطير.

أنا أُحَلِّق بكونكورد الركاب الحديثة للغرغرينا

في السماء.

أنا المتجه محلقًا لأطعنكم بالكونكورد،

لأدسّ سيفًا في الغرغرينا.

هذه قصيدة عن سيف من الكيروسين.

هذا هو القرن الـ 21 في الجحيم.

أطعن السيف في الرائحة.

أنا سيف من شروق الشمس يحلق

لأسلخ الناس في المباني، والمباني،

في الندى.

أوقفنا رجال الإطفاء قرب برودواي، وقفنا، ننظر غربًا إلى الدخان والغبار. من وجهة نظرنا رأينا اللا شيء في مكان البرجين، إلا بناء مشتعلًا بالنار على البعد. هذا كان مركز التجارة العالمية السابع، وهو المبنى الصغير الذي انهار في وقت لاحق بعد ظهر ذلك اليوم، أطلقنا عنان كاميراتنا لتصور النار من مسافة بعيدة، تريثنا. فلم يعد هناك شيء آخر لنراه، وليس هناك ما هو أكثر لنفعله. كان هذا هو الشيء الغريب عن 11 سبتمبر/ أيلول: حدث ما حدث، وبعد ذلك قضي الأمر، فكان هناك عدد قليل من الناجين، لذلك لم يبقَ هناك إلا القليل من التجربة. يمكننا أن نقف فقط، وننظر. كم كان غريبًا أن تكون في نيويورك مستشعرًا الملل، ومستشعرًا صدمة خفيفة على غرار ما كنت قد شعرت به في أماكن مثل أفغانستان. كان كما لو كنت قد أحضرت بعض الفوضى في العودة معي.

في الأيام التي أعقبت الهجمات، شاهدت نشرات الأخبار، واستمعت إلى الراديو، وأذكر القلق الذي شعرت به من مدى استجابة الرئيس بوش، وكلامه للمرة الأولى عن (الحرب ضد الإرهاب) وهو مصطلح يستخدم في آن واحد وعلى حد سواء حرفيًّا ومجازيًّا. لقد دهشت من تهور كلماته، أتذكر خاصة بيانه إلى الكونغرس يوم 20 سبتمبر/ أيلول، الذي تلفظ بالكلمات الشهيرة: «كل أمة، في كل منطقة، عليها الآن أن تتخذ قرارها. إما أن تكون معنا أو تكون مع الإرهابيين»[2] هل يمكن لرئيس الولايات المتحدة في الحقيقة أن يقول ذلك؟ وفي الوقت نفسه، مبعوثو طالبان في الباكستان قاموا بالمثل

بتصريحات مثيرة للسخرية، زاعمين عدم معرفة مكان وجود أسامة بن لادن، مشيرين إلى أنه لم يكن مسؤولًا عن الهجمات.

كنت منزعجًا بشكل خاص من كيف أن الجميع أصبحوا خطرين إلى حد القتل، وكيف أنهم متشددون؟ وكان من الصعب أن نصدق أن هذا كله قد حدث. هذه ليست حربًا حقيقية، كنت أعتقد أنه سوء فهم كبير. تنظيم القاعدة، ما كنت أعرفه عنه في ذلك الحين، وما ظهر بعد ذلك، أنه ليس أكثر من بضع مئات من الرجال، وشيء ما عن المعركة، وعن الاستياء الساذج لتنظيم القاعدة والردود الساذجة من أمريكا، بدت معتوهة. لم يكن هناك أي عمق فيها، وقضايا اليوم بدت صبيانية، خطة وضعها أطفال، أطفال خطيرون جدًّا بالتأكيد، ولكنهم أطفال مع ذلك، وأي من الطرفين لا يوجه ضربات صاعقة للآخر، فلا أحد من الطرفين كان يفكر تفكيرًا إستراتيجيًّا. كان ذلك هرجًا ومرجًا في ملعب على نطاق عالمي، وسيكون الصراع رهيبًا وتافهًا، وسوف يستمر مدة طويلة.

عدت بعد ذلك إلى أفغانستان، في قندهار، أتجول في مجمع الملا عمر المقصوف ومخابئ تنظيم القاعدة المحترقة، ومستودع الذخائر المتفجر بحديده المدمر والمعوج، ضائعًا بين القطبين، وجهان لمعركة جديدة غريبة جارية على قدم وساق الآن، وشعرت بغربة منفصلًا عن كل شيء. في قندهار كما هو الحال في نيويورك، شعرت كما لو أنني لم أكن حاضرًا حقًّا، فلم أكن حتى موجودًا.

في مستودع الأسلحة، من دون سبب على وجه الخصوص، ضغطت أزرار هاتفي المرتبط بالأقمار الصناعية؛ لمعرفة الإحداثيات الجغرافية، ثم انتظرت الرد، رافعًا الهاتف إلى الغيوم الزاهية، مثل كاهن قديم رافعًا قربانًا، بحثت في السماء، فرأيت شمسًا باردة كما القمر، ثم سمعت قعقعة بعيدة من وسيلة عنف أخرى ترسم خطأ في العلو. أدهشتني المسافة، بين هنا وهناك، بين هاتفي والأقمار الاصطناعية، وبين

الأرض الصلبة والسماء. كيف هو مدهش التفكير في السفر عبر هذه المسافات – من الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق – آتيًا وذاهبًا عبر البحار والقارات، في مهمة للأذى، في مهمة للتدمير.

* * *